

ألقيت في المؤتمر الأول للرواية العراقية في المنفى. اكتوبر 2013 لندن

تجربتي الروائية عبر مسيرة الحياة

زهدي الداودي

على حافة الحلم الذي نقلني إلى بداية كينونتي، عرفت بأنني استنشقت الهواء في مطبخ بدائي. لم تكن القابلة رقيقة معي، إذ أنها حين ضربت بقوة على مؤخرتي، جاوبتها بضرطة قوية على وجهها، الأمر الذي لم تعهده من أي مولود جديد آخر. ورغم تألم أمي للضربة التي أوجعتها أكثر من أن توجعني أنا، فإن القابلة صفعت مؤخرتي الصغيرة مرة أخرى قائلة: "إنه يجب أن يصرخ بدل أن يضطرب". ولم أكتف هذه المرة بالصراخ، بل وجهت نافورة رقيقة من البول على وجهها. طرحنتي القابلة محتجة على مندر جنب صرصور رابض استهوته رائحة الدم، كي تعنتي بأمي التي فقدت وعيها. وفي الوقت الذي بللت القابلة فيه وجه أمي بالماء وضربتها هي الأخرى بصفعة قوية على وجهها، رفعتني مساعدتها وضممتني إلى صدرها الذي مازلت أحس بدفنه، قائلة وهي تشد وجهها على وجهي:

"الضرطة والبول دليل الصحة والعافية يا امرأة"

كانت هذه أول لقطة روائية ولدت معي وفرضت علي بشكل غريزي وعفوي أن أوظفها بشكل مستقل دون التأثر بالاتجاهات الموجودة حول كتابة الرواية ودون الإطلاع على تفاصيلها. كل ما كنت أبغيه هو ربط موضوع الرواية بالحياة ربطاً جديلاً غير ميكانيكياً، ربطاً يصور الصراع بين القديم والجديد، بين الزمان والمكان، بين المعقول واللامعقول، بين المدينة والريف، بين التخلف والتقدم، بين الجريان مع العصر الحديث والتقهر إلى الوراء، بين تناول الشخصية الروائية من الداخل بكل أحلامها وهمومها وبين تناولها بصورة سطحية فوتوغرافية من الخارج. تنسيق وربط الأحداث بشكل يسترعي إنتباه القارئ دون أن يبعث فيه الملل، ذلك المرض الخبيث الذي يقتل الرواية وهي في المهد. توظيف التراث والفولكلور والحلم بصورة مبدعة ضمن إندفاع داخلي لخلق رواية سحرية شبه واقعية أو رواية واقعية شبه سحرية. إن الرواية الخالية من الصراع جثة خالية من الحياة.

إن أحداث الرواية يجب أن تجري مثل جريان النهر، تارة هادئا كأنه لا يجري وأخرى صاخبا بفيضان مدمر أو تتبادل الحركتان، عناق المد والجزر ولعبة إحتضان الساحل للبحر أو إحتضان البحر للساحل.

تسلقت جدار الحلم عابرا إياه إلى الجانب الثاني. كانت أحزاني التي تقربني من نهاية العالم تشدني إلى عالم النوم، إلى عالم وردي. كنت مازلت أبكي، ولكن بصمت. كنت بحاجة إلى من يعاملني كطفل. علمت أنني استسلمت للنوم. كانت يد ناعمة تمسد ظهري برقة غريبة، ومما زاد في خدري ونشوتي أريج القرنفل. كنت أتمنى أن لا أستيقظ من الحلم.

أحسست أنها عرفت بأني أفتعل النوم، كما وأحسست بالرعشة التي اجتاحت جسدي، ورغم ذلك عاملتني كصبي صغير، الأمر الذي جعلني أتغلب على حرجي. أحاطت وجهي بكفيهما الدافئتين وهي تتحني علي، بحيث أحسست بأنفاسها وبرائحة القرنفل كسحابة تهب النشوة. قالت بصوت خافت:

"كاوان، أنت لم تعد صبيا، هيا قم، عليك أن تسد الفراغ الذي تركه موت والدك".

لم يكن في محيطي العائلي من يهتم بالكتابة ورغم ذلك كان والدي مشتركا في جريدة الأخبار اليومية ومجلة المستمع العربي الشهرية. وبين حين وآخر تصله مجلة المعلم، حين كان يعمل في التعليم، ولكنه حين أصبح مديرا للناحية، انقطعت علاقته بها. لعلهم ضيعوا عنوانه، حيث أصبح دائم التنقل بين النواحي البعيدة التي كانت تفتح آفاقا جديدة أمامي. وإذ كنت أحلم دوما عما يكمن وراء الآفاق الملونة حققت الوظيفة الجديدة لوالدي أمنيته، حيث رحلت أنتقل بين سفوح وهضبات كرميان وجبال بهدينان مثل طائر مهاجر يعرف كيف يتقي شر البرد والحر وعرفت أن العالم لا نهاية له وأن الثلوج لا تسقط في كل مكان وأن رياح السموم لا تهب في كل واد. لقد صرت أعشق التنوع دون أن أدري ما هو التنوع.

سألني ذات مرة أحد أعمامي وهو فلاح لا يعرف القراءة والكتابة ماذا أحب أن أكون في المستقبل، أجبته بسرعة:

أحب أن أكون شرطيا.

ضحك من كلامي وقال متهكما:

هناك نوعان من الشرطة، الأول يرتدي بنطلونا قصيرا فوق الركبة، إذا جلس ظهر نصف خُصيانَه والثاني يلبس بنطلونا طويلا واسعا فضفاضا من فوق وضيقا من تحت، يسمونه شرطة الخيالة، أيهما تريد أن تكون، علما أنك لا تحتاج إلى الدراسة كي تصبح شرطيا.

أحس عمي بعلائم الخجل المطبوعة على وجهي وبالصدمة التي منعتني عن الإجابة الفورية على سؤاله. وأحس بأن انطباعي أن أكون شرطيا أميا قد تغير. قال: لنترك الآن الشرطي وشأنه ونرجع إلى سؤالنا: ماذا تحب أن تكون في المستقبل؟

أحب أن أكون معلما. قال بارتياح:

كان والدك أيضا معلما. في قريتنا معلم قبيح له زوجة جميلة بنهدين نافرين. لو كان طالب الزواج شرطيا، لبصقوا في وجهه.

في وقت متأخر علمت أن عمي الفلاح البسيط، كان معلمي الأول في درس الايروتك الذي جاء في معظم كتاباتي.

في الصف الخامس الابتدائي تمنيت أن أكون كاتباً، بعد أن كنت أتمنى أن أكون شرطيا فمعلما. وهكذا قررت أن أكون كاتباً وأما إذا ما كان الإنسان يتمكن العيش من وراء هذه المهنة، فمسألة لم تخطر ببالي. وحاولت أن أكتب قصة على غرار قصة اللقلق والثعلب، بيد أن المشكلة التي واجهتها عند البدء بالكتابة، هي كيفية التعبير عن أفكار وتكوين الجمل ورحت أجمع الجمل المفيدة من مجلة سندباد المصرية التي كنت مشتركاً فيها وأنقلها إلى قصاصات ورق أحتفظ بها داخل ظروف حسب المواضيع التي تعالجها الجمل وأحاول حفظها عن ظهر قلب. وكتبت أول قصة عن ثعلب أو ابن أوى يسرق دجاجة من حظيرة فلاح وعندما صاحت الدجاجات بقيادة الديك، تضامنا مع الدجاجة المسروقة، استيقظ الفلاح وراح يبحث عن الثعلب الذي ترك الدجاجة تهرب واختفى وراء جدار. ولكن سرعان ما عثر عليه صاحب البيت الذي ناوله ضربة قوية من عصاه على مؤخرته. وكان أن هرب الثعلب وقرر أن لا يكرر فعلته التي لم تجلب له سوى ضربة قوية على مؤخرته التي لا تزال توجعه إلى يومنا هذا.

كانت لي اهتمامات في الرسم أيضا ولا سيما في مجال نقل الصورة الذي لا يشجعه المعلم. ذات يوم جاءنا معلم الرسم والأعمال اليدوية علي قمبر بخبر الإعلان عن مسابقة لأحسن صورة يرسمها الطلبة على مستوى اللواء. ولما كنت لا أثق بنفسي كرسام، لذا لم أهتم بالخبر، الأمر الذي لم يعجب علي قمبر الذي أصر على ضرورة مشاركتي في المسابقة. وكان أن رضخت لطلبه برسم صورة الملك فيصل الثاني بالقلم الرصاص. وكانت الصورة التي رسمتها، كما قال مطابقة للنسخة الأصلية. وعندما ظهرت النتائج، حصلت، كما قال علي قمبر، على الجائزة الأولى التي كان مقدارها خمسة دنانير، سألني أمام الطلبة إذا ما كنت مستعدا للتبرع بالمبلغ لشراء أدوات الرسم لمرسما الفقير. وكان أن انتزع مني كلمة نعم.

عندما بدأ الامتحان النهائي للصف السادس الابتدائي "البكالوريا" يطرق الأبواب، حاصرنتي فكرة بغیضة، جثمت على قلبي كالكابوس، وهي الخوف من مادة الرياضيات. وعلمت أن

رسوبي فيها مسألة لا شك فيها وهذا يعني إعادة السنة الدراسية بكاملها، حيث لا ينبغي لا الثعلب ولا ابن أوى، لذلك رأيت أن أفتح والدي بالمشكلة. وهذه هي المرة الأولى التي أفتحه فيها بمشكلة تخصني. كنت أتوقع أنه سينهزني كالعادة. بعد أن استمع إلي بهدوء، طلب مني أن أهياً نفسي للسفر معه إلى كركوك في اليوم الثاني. وفي مكان ما لا أتذكره، التقى بصديقه القديم المدرس مصطفى عادل وعرض عليه أمرى. وكان أن علق هذا قائلاً أنه ليس من العدالة أن يعيد الطالب سنة دراسية كاملة بسبب مادة سخيفة لا قيمة لها. واقترح علي أن أذهب إليه في غرفته في المدرسة الثانوية التي ستجري فيها الامتحانات. حين بدأت الامتحانات، كان يشرف هو على القاعة. خصص لي مكاناً معيناً وطلب مني أن أكون آخر من يترك القاعة. وتمت العملية بنجاح. لن أنسى فضله علي أبداً. حين حصلت على الشهادة، قال لي أبي إنها ضرورية في الحياة. إنك لو علقت الشهادة على رقبة حمار، لعامله الناس كالإنسان.

على خشبة المسرح

كنت مع بدء العطلة المدرسية أركز على هوايتي في إصدار جريدة حائطية بعنوان "بابل". وكتابة القصص القصيرة. كنت أعلقها على جدار غرفة صغيرة متروكة تابعة لحمام بيتنا، سبق أن حولتها إلى مكتبة تحتوي على كتب ومجلات والدي المخزونة في حقائب مختلفة. كان معظمها يعود إلى فترة اشتغاله بالتعليم. وتبرع أصدقائي بما لديهم من الدوريات. ورحنا نلتقي في هذه الغرفة الصغيرة التي كانت بمثابة نادي لنا نحن الصغار من أبناء مختلف الفئات الاجتماعية والذين كانت لهم اهتمامات في القراءة والكتابة البدائية اللتين كانتا تشكلان شرطاً غير مكتوباً للانتماء إلى هذا النادي. كنت أحصل بين فينة وأخرى من هذا وذاك كتاباً للمنفلوطي أو جبران خليل جبران أو غيرهما من الكتاب العرب والأجانب. وعلى فكرة حين كان يحل موسم الأمطار، كنت أحمل مظلة وأجلس في أحد أركان حوشنا، أتمتع بإيقاع دقات المطر على المظلة وأقرأ كتاب النبي لجبران خليل جبران. ومع مرور الزمن كان الأصدقاء يُغربلون حسب اهتماماتهم وقابلياتهم. ومما ساعد في ذلك محاولة مدير المدرسة الثانوية موسى نعمان، تشكيل فرقة مسرحية لتقديم المسرحيات على مسرح قاعة الثانوية. وكان أن أوعز إلى مدرس اللغة العربية نوري أكبر بالتدقيق في دفاتر الإنشاء واختيار الممثلين في ضوء قابلياتهم في الكتابة. كنت إذ ذاك في الصف الأول المتوسط. وإلى جانب النشاط المسرحي، كلفنا بإصدار نشرة حائطية دورية وقمت بتكليف من مدرس الجغرافية برسم عدة خرائط على الجدران. وسلمني المدير مفتاح القاعة التي تحولت إلى ورشة لنشاطاتنا الثقافية. قرر المدير تقديم مسرحية "رسول النبي إلى هرقل" حيث وزع علينا الأدوار وجلب خصيصاً لهذا الغرض مخرجاً من بغداد. لا أدري إذا ما نجحت المسرحية في الواقع أم لا، ولكن الذي أعرفه هو أننا اعتبرناها مسرحية ناجحة وحدثاً مهماً في تاريخ قصبة طوزخورماتو التي لم يسبق لها أن شاهدت مثل هذا العمل الذي كان الإقبال عليه كبيراً جداً. وتوطدت العلاقة بيننا نحن العاملين في النشاط الثقافي وكان من أبرز الطلبة في هذا المجال عبد اللطيف بندر أو غلو وموسى أحمد العبيدي وطالب أسمه حافظ من الموصل، كانت أخته تعمل معلمة في مدرسة البنات وغيرهم... لا أتذكر أسماءهم..

صدى الواعي

ذات يوم ذهبنا أنا و عبداللطيف إلى محطة القطار، حيث كان سكن أهل موسى الذي كان والده يشتغل عاملاً في المحطة. كان بيتهم متواضعا إلى درجة الفقر. كنا في لقاءتنا نتذمر من الوضع القائم و ننتقد النظام الملكي الذي كنا نعتبره باليا وقررنا أن نعمل شيئا. أبدى موسى حماسه للفكرة. كنت أعرف ماذا يريد عبد اللطيف: أن يشكل منا حلقة يربطنا بالحزب الشيوعي، ذلك أن شقيقه كان عنصرا نشيطا فيه. كنت لست ضد الفكرة من حيث المبدأ، بيد أنني كنت أرى أنفسنا صغارا لمثل هذه المهمة الخطيرة. وكان أن اقترحت عليهما مشروع إصدار مجلة دورية نكتبها باليد و تبرعت أن أقوم أنا بعملية كتابة المواضيع. أصدرنا عدة أعداد بعنوان "صدى الواعي"، كنا نتناقلها بحذر بين الأصدقاء، بيد أننا أحسنا بأن أمرنا بدأ ينكشف و تتوجه الأصابع نحونا. وكان أن توقفنا عن مواصلة هذا النشاط الخطر. ورحنا نركز على نشاطنا الثقافي المدرسي.

كنت بحكم علاقة القرابة الموجودة في داقوق، أسافر بين فينة وأخرى إلى هناك، حيث تعرفت عن طريق الأقارب بكل من المعلمين إبراهيم الداوقوي و محمد خورشيد الداوقوي. كانا يقرئان يناييع الأدب العالمي و يمتلكان كتبها المترجمة إلى اللغة العربية. أعارني إبراهيم بعض الكتب و أما محمد خورشيد فتعهد بإرسال رزمة بالبريد. ذات يوم جاءني الفراش في المدرسة يطلب مني الذهاب إلى المدير موسى نعمان. وحين ذهبت إليه في غرفته، وجدته واقفا أمام مكتبه، يقلب بعض الكتب. ما أن رأني، إلا وبادر قائلا:
"ما افتهمنا، تقرأ مجلات الأطفال أم الأدب الكلاسيكي العالمي؟"
قلت باعتزاز:

"كنت أقرأ قصص الأطفال و الآن أريد الانتقال إلى الأدب الكلاسيكي العالمي"
تناول مجلة سندباد الآتية بالبريد، سائلا إذا ما كنت أملك الأعداد القديمة و ماذا أصنع بها بعد الانتقال إلى مرحلة الرجولة و ما إذا كان يمكنه إعارتها مني لأبني الصغير. قلت له إنني لست بحاجة إليها، سأجلبها كلها هدية له. نصحني أن أبلغ صاحبي بعدم إرسال الكتب بالبريد، لأنها ممنوعة.

تم نقل موسى نعمان إلى مدرسة أخرى و حل محله مدير جديد هو خورشيد كاظم البياتي. ومع التحاق الأخير بوظيفته، توقف النشاط الثقافي في المدرسة توقفا تاما. حتى إصدار نشرة حائطية أصبح أمرا محرما.

انتقل والدي إلى مدرسة افتخار القروية، بعد أن تمت إحالته إلى التقاعد، و أخذ معه العائلة وجاءت جدتي للسكن عندنا لتعاوننا أنا وأختي زاهدة في شؤون البيت، إذ أضطررنا للبقاء في طوزخورماتو لمواصلة الدراسة الثانوية. كنت أزورهم في نهاية الأسبوع، مسافرا بالقطار الصاعد إلى كركوك.

جماعة أبناء الشقاء

كان ذلك في منتصف خمسينات القرن الماضي عندما كنا نسمي أنفسنا "جماعة أبناء الشقاء". وجاء الأسم باقتراح من قحطان الهرمزي الذي تعرفت عليه في طوزخورماتو، حيث جاء إليها بحكم وظيفة والده نجاتي الهرمزي الذي كان صديقاً حميماً لوالدي. كنت في الصف الأول المتوسط وأما قحطان فكان في الرابع الثانوي إن لم تخني الذاكرة. كانت صداقتي في الحقيقة مع شقيقه عصمت الذي كان بعمر 11. كان عصمت يحلم أن يكون ممثلاً معروفاً، والحقيقة أن حلمه لم يكن مبنياً على وهم، إذ أنه كان ممثلاً بالفطرة. وكان يحاول دوماً أن يجرنني إلى عالم هوايته مؤكداً لي بأن مستلزمات الممثل متوفرة عندي، بدليل أنني أشبه الممثل الأمريكي كريستوف بيك. ولم يقف عند هذا الحد، بل أكد لي بأنني أصلح لأفلام الكابوي، ذلك أنه رأني ذات يوم على ظهر حصان وأنا في طريقي إلى قرية أبو صباح في حين هو جالس في الباص الخشبي القديم الصاعد إلى كركوك. أخرج راسه من النافذة وهو يحثني على التسابق مع الباص. ولم يخيب حصاني ظنه، بيد أن الفضل بالتأكيد لم يعد لحصاني الهرم، بل لضعف الباص الذي أكل عليه الدهر وشرب.

تمكن عصمت إلى حد ما أن يجرنني إلى عالم هوايته، إذ اشتركت معه في تقديم مسرحية قصيرة أمام أهلنا في إحدى الأمسيات. وكان ذلك بداية لمساهماتي في مسرحيات قدمت فيما بعد مثل مسرحية "رسول النبي إلى هرقل" و "الطبيب المفلس" و "السجناء" التي قدمت على مسرح قاعة ثانوية طوز ومسرح قاعة مدرسة الوطن النموذجية في كركوك.

رغم تلك المساهمات المسرحية، ظل إهتمامي منصباً على الأدب والرسم وكنت أنجذب إلى قحطان وأستفيد من ملاحظاته على نصوصي البدائية التي كان يعيد كتابة بعضها بأسلوبه الخاص.

انتقلت من عالم قراءة قصص الأطفال إلى عوالم جبران خليل جبران والمنفلوطي وطه حسين ونجيب محفوظ وغيرهم. وانتقلت نشرتنا الحائطية إلى مستوى أعلى بفضل إشراف قحطان عليها وحولت منزع حمامنا المتروك إلى مكتبة ومكان للقاء ما يسمى بهيئة التحرير. وأما من هو جمهورنا ومن يقرأ نتاجاتنا، فمسألة لم تهمننا ولم نفكر فيها. المهم أننا كنا نكتب ونريح حاجة ذاتية في دواخلنا ونعتقد أننا نغير العالم، ولكننا سرعان ما أحسنا بأننا نعيش داخل قوقعة وندور في حلقة مفرغة. وكان أن انسلخنا عن عالمنا الذي كان لا يزال تهيمن عليه الطفولة والصبيانية، ورحنا ننصرف إلى إلتهام ما يقع في أيدينا من روائع الأدب العالمي.

ومن خلال زياراتي المنتظمة إلى كركوك وانتقالي إليها بسبب فصلي من ثانوية طوز لتحريضي الطلبة على الإضراب العام، تعرفت على يوسف الحيدري، أنور الغساني (أنور

محمود سامي (سابقا، مؤيد الراوي (مؤيد شكري) سابقا، جليل القيسي، فاضل العزاوي، علي شكر البياتي ونور الدين الصالحي.

كان ذلك في الفترة 1954 – 1955 ، كنا نلتقي عادة في بيت أحد الأصدقاء أو في المكتبة العامة القديمة التي كانت تطل على نهر خاصه صو جنب البريد المركزي. وكنا قد بدأنا بالنشر في الجرائد العراقية منها النديم الاسبوعية، صوت المحاربين، الحوادث، المجتمع البلاد، التقدم وفتى العراق الموصلية.. الخ. وأصدر فاضل العزاوي مجموعة شعرية صغيرة بعنوان "أساطير خالدة" طبعت في مطبعة كركوك. وفي تلك المرحلة توطدت علاقتنا بالأب يوسف سعيد ومحمد أحمد رستم، كان الأخير معلما وقاصا جيدا، نال جائزة مجلة الآداب في القصة القصيرة . كنت ألتقي به في مخزن والده الواقع في شارع الأوقاف، حيث أسلمه مسودات قصصي القصيرة ليبيدي حولها ملاحظاته.

كانت كركوك آنذاك بالنسبة لي مركز العالم الثقافي، حيث كنا نحصل على كل ما نريده من الثقافات العالمية باللغتين العربية والانكليزية من المكتبتين المعروفتين: "المثنى" لصاحبها أوجين شمعون و"المكتبة العصرية" لصاحبها حلمي عباس. كنا أكثر انجذابا للشخص الأول، إذ أنه كان يعرفنا شخصيا ويعرف ما نريده من الروايات العالمية المترجمة إلى اللغة العربية التي كان يخفيها في الرفوف الخلفية من مكتبته. وكانت ثمة مكتبة ثالثة صغيرة مقابل القشلة لصاحبها عمر بيكه س مختصة ببيع المطبوعات الكردية. وهناك تعرفت بالكاتب الكردي "معروف خزنة دار". وكان قد أصدر آنذاك كتابا بعنوان "أغاني كوردستان" وعرفت منه أنه يدرس اللغة العربية في المتوسطة الغربية. وأعلمته بأنني في الصف الثاني المتوسط وأدرس في نفس المدرسة، ولكن في القسم المسائي. اصطحبني ذات يوم معه إلى الصف للإستماع إلى درسه.

كنت آنذاك (1955 – 1956) قد قرأت، بصورة واعية، عددا كبيرا من الروايات العالمية التي كنت أدرس كيفية بنائها وتركيبها. وكنا، أنور الغساني وأنا نقضي الساعات ونحن نناقش تلك الأمور. أذكر إنني نشرت نقدا قاسيا حول رواية "صراخ في ليل طويل" لجبرا إبراهيم جبرا بعنوان "صراخ في ليل طويل، فكرة بسيطة ومحاولة فاشلة في الإبداع" نشرت في جريدة (المجتمع) الاسبوعية. وفي نفس الوقت أنجزت رواية طويلة بعنوان "طريق الآخرين" سبق أن تطرقت إليها في مكان آخر من هذه المساهمة.

يبدو لي أن الحالة الثقافية في منتصف خمسينات القرن الماضي في كركوك كانت أفضل بكثير مما هو عليه الآن، وكان الناس يقرأون الكتب بلهفة أكثر. أرجو أن أكون مخطئاً في تقديري هذا. ولكن يبدو أن ظاهرة الإنصراف عن الكتب مسألة عالمية، فقد قال لي كاتب ألماني بمرارة، أن الناس في هذه الأيام يقرأون الفيديو!..

أذكر أن قائممقام طوزخورماتو أفتتح ذات يوم "بعد ثورة 14 تموز 1958" معرضاً للرسم أشرف عليه الفنان محمد مهدي، وكان من المفروض أن أساهم بدوري أيضاً، بيد أنني لأسباب معينة تخلفت عن تقديم لوحاتي. وعند افتتاح المعرض عاتبني أستاذي المرحوم محمد مهدي لعدم مساهمتي في المعرض، وحين اعتذرت له لضيق الوقت هز رأسه وقال معاتباً ومتهكماً:

"منذ أن أصبحت مناضلاً، نسيت الفن يا بني"

وأذكر أيضاً أن طلب مني ذات مرة المرحوم الأستاذ سنان سعيد أن أكتب موضوعاً للمجلة المدرسية "صدى الشباب" التي كان يشرف على إصدارها، فكتبت موضوعاً حول الوطن والوطنية، أفتتحته بعبارة للشاعر أحمد شوقي: الحياة عقيدة وجهاد". وكان أن التقينا صدفة أمام باب مديرية المعارف. وبعد أن تصافحنا، سألتني ما إذا كنت قد انتهيت من كتابة الموضوع. أخرجت المادة من حقيبتي وسلمته إياها. بعد أن ألقى نظرة سريعة على المادة، رفع رأسه وأشار بيمنه إلى نوافذ سجن مركز الشرطة المحكمة والمطللة على شارع الأطلس وقال: "هل تشتهي تمر زهدي أبو القسب وصمون يابس أم أن جلدك يحكك؟"

عرفت أن جلدي يحكني، كجزء من مزلق السياسة، ولكنني أردت أن أعرف ماهية الأمر، فقلت:

"ولكنني كتبت عن الوطنية فحسب، هل هذه كلمة ممنوعة يا أستاذي؟"

أشار إلى عبارة أحمد شوقي قائلاً:

"ما هذه العبارة؟". قلت: "أنها لأحمد شوقي كما ترى"

قال بهدوءه المعهود:

"أحمد شوقي يقصد شيء وأنت تقصد شيء والشرطة تعرف شيئاً آخر، هيا أمسح العبارة إن كنت تريد نشر المادة"

وكان أن مسحت (العبارة الخطيرة جداً) والتي ربما كانت تؤدي إلى خلق المشاكل للمشرفين على المجلة مع أجهزة الأمن أو تؤدي إلى عرقلة صدور ذلك العدد من "صدى الشباب".

وهكذا كان شأن الرقابة في العهد الملكي.

كانت حياتنا قاسية جدا. وكانت هذه القسوة متعددة الجوانب، تأتينا من مختلف الجهات، من البيت، من المدرسة، من المجتمع ومن السلطات الحكومية التي كانت أخطرها. وكنا نعتقد أن أحسن علاج لهذه القسوة الآتية من كل الأطراف، هو التحدي بصورة لا هوادة فيها. النضال ضد كل الجبهات. كان كل واحد منا ينظر إلى مشكلته الخاصة بنظرة معينة خاصة به ويعالجها بطريقته الخاصة، ولكن شيئا واحدا رئيسيا كان يجمعنا تحت مظلة ويوحدنا ويمنحنا قوة خارقة للوقوف في مواجهة تلك القسوة الهائلة. وكان هذا الشيء هو الأدب الذي تحول لدينا إلى سلاح وحلم وهدف وهواية وقوة ومحرك.

كان لكل واحد منا حلمه الخاص الذي لا يجهر به حتى لأعز أصدقائه كما كان لكل واحد منا ذاتيته الخاصة به والتي لا يعلن عنها أيضا. وكان لكل منا نظرته الخاصة تجاه محيطه وعصره ومدى ملائمته معهما. بالنسبة لي أنا كنت أجد راحتي الداخلية حين كنت أزور أعمامي في قراهم وأشاركم حياتهم البدائية التي تشبه رواية غير مكتوبة، يجب أن تكتب بالتفصيل.

كانت حياتنا عبارة عن معركة صاخبة لا تهدأ، وحين نبتعد عن بعضنا، يطحننا الحنين والشوق وما أن نلتقي، يبدأ العراك من جديد وأما إذا التقى بعضنا دون الكل، فيسود السلام والهدوء. هكذا كنا دوما كاختلاف الليل والنهار.

اتحاد الأدباء العراقيين ومجموعة "الإعصار"

كنت أسافر بين فينة وأخرى، ولا سيما في العطلات الرسمية إلى بغداد. كنت التقى بأصدقائي فاضل العزاوي، أنور الغساني، مؤيد الراوي، يوسف الحيدري وغيرهم الذين تركوا كركوك للسكن في بغداد الأمانة بالنسبة إليهم. كما وكنا نلتقي بأدباء قادمين من المحافظات الأخرى أذكر منهم عبد الرحمن مجيد الربيعي، عبد الستار الدليمي، إبراهيم أحمد وغيرهم. ولما كنا قد أصبحنا أعضاء في اتحاد الأدباء العراقيين، لذا كنا نرتاد ناديه ونساهم في فعالياته ونتعرف بدورنا بوجوه أدبية ننظر إليها بالود والاحترام. ذات مرة، وكنت قد نشرت قصة قصيرة بعنوان "صديقان" في مجلة (الأديب العراقي) التي كان يصدرها اتحاد الأدباء العراقيين، كنت جالسا وحدي بانتظار بعض الأصدقاء، جاءني علي جواد الطاهر بابتسامته الأبوية، جرتني من يدي قائلا: تعال معي لأعرفك ببلند الحيدري. حين أصبحنا ثلاثتنا على المائدة، وجه كلامه إلى بلند قائلا: أبو عمر، هذا هو زهدي الداوودي، صاحب قصة "صديقان"، ثق لو كان يعرف اللغة الفرنسية، لقلت إنه ترجمها

منها. وراحا يمدحان القصة بحيث تصورت أنهما ينصبان لي مقلبا، لو لا أنهما طلبا مني أن أقرأ قصة قصيرة في إحدى أماسي اتحاد الأدباء. وفعلا قرأت قصة بعنوان "دماء وزيتون" من وحي انتفاضة عمال شركة نفط العراق في كاورباغي بكركوك. نشرت فيما بعد في سلسلة "أماسي الاتحاد". وأقترح علي علي جواد الطاهر إصدار مجموعة قصصية، يمكن الاتفاق بشأنها مع شاكر خصباك. اتفقت مع أنور الغساني الذي كان قد فتح مكتبا للخط والإعلان في شارع السعدون على أن يقوم بتصميم الغلاف وتصحيح الأخطاء المطبعية. كان يفترض أن يحمل الكتاب عنوان أطول قصة في المجموعة وهي "الإعصار الأسود". اقترحت علي أنور أن تكون أرضية الغلاف باللون الأسود تتخللها دوامة إعصار. ورأينا أن نكتفي بعنوان "الإعصار" دون الأسود، ذلك أن السواد يبدو للعيان بوضوح ولذلك لا داعي لتكراره. وصدرت المجموعة في خريف العام 1962 . عندها، حين رأي علي جواد الطاهر، صاح رافعا يميناه:

"أهنيك، مجموعتك ضربت الرقم القياسي في التوزيع"

ولما سألته عن عدد النسخ المباعة، أجابني: "175 نسخة"

كنت أتوقع أن الرقم ليس أقل من 1000 نسخة، لذلك قلت له بخيبة أمل: إنه رقم بانس يا أستاذ. عرف أنني أجهل طبيعة سوق الكتاب. وراح يشرح لي ماهية الواقع المر وكيف أنهم طبعوا ديوانا لشاعر، لا أريد ذكر اسمه، لم يباع منه حتى نسخة واحدة، رغم أنه درّس في الثانوية أكثر من ألف طالب.

أرسلت نسخة من المجموعة إلى عبد الكريم قاسم، ليس لكي أحصل منه على مكرمة، بل لأنبئه، كمواطن عادي، إلى الوضع المتردي الذي كان يعيشه العراق آنذاك. نبهته في الإهداء بأن الإعصار الأسود الذي يخيم على العراق، سوف يقضي عليه قبل أن يدفع العراق إلى هاوية خراب لا نهاية لها. وكان أن تسلمت منه رسالة شكر كليشية جاهزة مع صورة تحمل توقيعه ومجموعة كراريس من أقوال الزعيم.

كان آخر لقاء لي مع علي جواد الطاهر في بداية شهر شباط 1963 وكنت بصحبة عبد الصمد خانقاه. عرضت عليه مسودة رواية طويلة بعنوان "طريق الآخرين" بغية طبعها على مطبعة الاتحاد. رحب بالفكرة وسلم المسودة الوحيدة التي كتبتها بخط يدي إلى عبد الصمد، راجيا منه أن يكتب لها مقدمة. بعد أسبوع قامت القيامة، ولم أر بعدها لا عبد الصمد خانقاه ولا مسودة الرواية ولا علي جواد الطاهر.

لم تتل مجموعة الإعصار حقها من القراءة والنقد، ذلك أنها صدرت قبل إنقلاب 8 شباط/ فبراير/ 1963 بفترة قصيرة جدا وبقيت غريبة على القارئ العراقي حتى الآن، شأنها شأن

رواية "رجل في كل مكان" بيروت، دار الفارابي 1974 التي دخلت العراق لفترة قصيرة جدا. فترة الجبهة المزعومة. وأما المجموعة القصصية "الزنايق التي لا تموت"، فصادفت فترة صدورها هروبي من الوطن وتركبي وظيفتي في جامعة الموصل. ولم تتمكن القصة الطويلة "أسطورة مملكة السيد" إيجاد طريقها إلى العراق. وأما الروايات الثلاث التي تشكل ثلاثية "وادي كفران": أطول عام، زمن الهروب، تحولات" فصدرت في بيروت. وطبعت دار الشفق في كركوك رواية "وداعاً نينوى" في العام 2004 . وطبعت دار نئراس / أربيل، بالإضافة لأعمالها الكاملة، روايتي "فردوس قرية الأشباح" 2007 و"عويل الذئب" 2013 . وأما وزارة الثقافة في إقليم كردستان، السليمانية طبعت رواية "ذاكرة مدينة منقرضة" 2010 .

إن المشكلة الأساسية التي كانت ولم تزل تواجه دور النشر هي التوزيع، فقد تبين لي أن الكتاب الذي يصدر في أربيل يبقى مكدسا في مخازن الدار دون أن يصل حتى إلى مكاتب الدار نفسها في أربيل. وكذلك الأمر مع الكتب التي تصدر في السليمانية، حيث تبقى في الدار دون أن تصل إلى أربيل وهكذا. ويكمن السبب في كسل الموظف المسؤول عن التوزيع وكون الدار مؤسسه حكومية، يقبض راتبه الشهري وليذهب الكتاب ومؤلفه إلى الجحيم. ويبدو إن القرار الصادر من مكتب رئيس وزراء إقليم كردستان بغلق "دار نئراس" / أربيل، له علاقة مباشرة بهذا الشأن.